أبو حيان الأندلسي والطعن في القراءات القرآنية

د. علي الهروط
قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب
جامعة مؤتة

ملخـــص

هذا البحث يقدم بإيجاز شديد موقف النحاة من القراءات القرآنية بعامة سلباً وإيجاباً. ويعرض كذلك وبالتفصيل لعدد من القراءات التي طعن النحاة بصحتها، مبيناً راي ابي حيان الاندلسي فيها وموقفه من الطاعنين فيها والأسس التي اعتمدها للدفاع عن القراءات.

Abstract

This paper presents very briefly negative as well as possitive the view points of Arabic grammarians to concerning the Koranic readings in general.

It also discusses in detail a number of readings about the Validity of which grammarians were in doubt.

The paper presents the views held by Abu Hayyan, the position he has taken with respect to those who were in doubt, and the princibles he adopted to defend there readings.

يقول السيوطي : «كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية وينسبونهم إلى اللحن وهم مخطئون في ذلك. فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها. وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية وقد رد المتأخرون ومنهم ابن مالك على من عاب عليهم ذلك بأبلغ رد، واختار جواز ما وردت به قراءاتهم في العربية[١].

وهذا الذي ذهب إليه السيوطي يثبته ما سجلته المراجع النحوية واللغوية وكتب القراءات للنحويين من مطاعن عديدة في قراءات متعددة[٢]، كما سنبينه بعد قليل.

(١) الاقتراح ص٤٩.

(٢) أنظر مزيداً من التفصيل حول هذا في الخزانة ج٢ ص٢٥٦. التصريح ج٢ ص٩٠ البحر المحيط ج٥ص٤١٩ ـ ٤٢٠.

وعلى النقيض من هذا نرى كثيراً من النحاة يقف من هذه القراءات موقفاً معتدلاً، فسيبويه يرى أنَّ القراءة سُنَّة ويجب اتباعها[٣]. وابن يعيش يعتمدها كمصدر لتقوية وتدعيم رأي دون الآخر فيقول : ويقوى الوجه الأول قراءةُ الجماعة[٤]. والأشموني يستدل بالقراءات على ما يقوله من رأي ويدعمه[٥].

ويقول ابن خالويه : «أجمع الناس على أن اللغة إذا وردت في قراءة القرآن فهي أوضح مما في غير القرآن»[٦]. والسيوطي في الاتقان يقول : كل ما ورد أن القرآن قرىء به جاز الاحتجاج به، سواء كان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً[٧].

والرازي يقول في تفسيره إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول فجواز إثباتها بالقرآن أولى من هذا كله[٨].

من هذه العجالة يتبين لي أنَّ هناك احتراماً وإجلالاً للقراءات القرآنية من كثير من النحاة واللغويين، ولكن هذا الإجلال والاحترام من هذا الفريق يقابله رفضٌ وطعن من فريق آخر. فالفريق الثاني يرفض ويعارض كثيراً من القراءات القرآنية ويرميها بالخطأ تارة وبالرداءة تارة أخرى وبالضعف أحياناً كثيرة.

ويبدو لي أنَّ سبب هذا الطعن كما سنبينه فيما بعد يكمن في ما يلي :

١ ـ اعتقاد النحاة أنَّ القراءات آراء تنبثق عن أصحابها.

٢ ـ ظن بعض النحاة أنَّ بعض هذه القراءات مبتورة الصلة بالرسول الكريم (ﷺ) ضعيفة السند.

٣ ـ مخالفة هذه القراءات في كثير من الأحايين لما وضع النحاة من معايير وقواعد.

---

(٣) الكتاب ج١ ص١٤٨.

(٤) شرح المفصل ج٣ ص١١٦.

(٥) شرح الأشموني ج١ ص١٦٨ ج١ ص٢٥٥.

(٦) المزهر ج١ ص١٢٩.

(٧) الاتقان ص١٤ ـ ١٥.

(٨) التفسير الكبير للفخر الرازي ج٣ ص١٩٣.

فإذا ما اصطدمت قراءة ما بما وضعوا من قواعد، لجأوا إلى طرق شتى لتبريرها. فإمَّا أن يقوموا بتأويل هذه القراءة وإمَّا أنَّ يرفضوها أو يرموها بالضعف أو الشذوذ.

لهذا كله وجه النحويون واللغويون قدماء ومحدثين اهتمامهم إلى دراسة هذه الظاهرة وأعني بها موقفهم من القراءات لغوياً[٩]، والطعن بها، وصنفوا فيها تآليف كثيرة. ولكن أحداً منهم لم يعرض لرأي أبي حيان النحوي مُفَصَّلاً من هذه الظاهرة. وإن عرض له فلم يَفِهِ حَقَّهُ في هذا الميدان. وفي بحثي هذا حاولت جاهداً أنْ أضع بين يدي القارىء رأي أبي حَيَّان وموقفه من القراءة القرآنية ولم أجد ـ وبعد البحث المستفيض ـ ما يشفي الغليل في هذا المضمار سوى سفره العظيم «البحر المحيط في تفسير القرآن» قد خضت عبابه على الرغم من صعوبته وضخامته. وجمعت القراءات التي طعن النحاة بها ورموها بالضعف حيناً وبالشذوذ أحياناً وبعد دراستها دراسة فاحصة ناقدة، ألفيت لأبي حيان موقفاً منها يستاهل أن يدرس ويبسط القول فيه. وتبين لي أن موقفه هذا كان موقف المدافع المنافح عن القراءات المطعون فيها، وان هذا الموقف يستند ويدور في فلك أربعة محاور هي :

أولاً : أن القراءة وصلت إلينا بطريق التواتر وصحة السند إلى رسول الله ﷺ ولا يجوز الطعن بها.

ثانياً : أن رواتها أهل ثقة، ولا يصح الطعن بهم ولا بقراءاتهم.

ثالثاً : ان هذه القراءات أجازها مشاهير النحاة.

رابعاً : ان القراءة القرآنية تمثل لهجة من لهجات العرب، واللهجات كما يقول ابن جني كلها حجة[١٠].

ولتوضيح الأمر وتجليته إليك ـ أيها القارىء ـ تفصيلاً بهذه القراءات المطعون بها، وبصحتها أولاً وبمن طعن بها ثانياً، وبموقف أبي حَيَّان من هذا الطعن ثالثاً.

---

(٩) أنظر مثلاً : سيبويه والقراءات ـ أحمد مكي الأنصاري ـ دار المعارف بمصر، ١٩٧٢ والدفاع عن القرآن أحمد مكي الأنصاري ـ دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣ ودراسات في النحو والقراءات : أحمد مكي الأنصاري ـ مجلة مجمع اللغة العربية ـ بالقاهرة ١٩٧٣ ـ ودراسات في أساليب القرآن ـ عبدالخالق عضيمة.

(١٠) أنظر الخصائص لابن جني ٢/١٠.

١ ـ إبدال السين زاياً : في قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

رمى بعض اللغويين ما حكاه الأصمعي، عن أبي عمرو في قراءة (السراط) بإبدال سينه زاياً خالصة بالخطأ، وأنه إنَّما سمع أباعمرو يقرأها بالمضارعة فتوهمها زاياً، ولم يكن الأصمعي نحوياً فيؤمن على هذا. وهذا الكلام حكاه أبوعلي الفارسي عن أبي بكر بن مجاهد(١١). يرد أبوحيان على من خَطَّأَ هذه القراءة برواية أبي جعفر الطوسي قائلاً : «قال في تفسيره وهو إمام من أئمة الامامية «الصراط» بالصاد لغة قريش، وهي اللغة الجيدة، وعامة العرب يجعلونها سيئاً. والزاي لغة لعذرة وكعب وبني القين(١٢).

فَرَدُّ أبي حيان يعتمد على أن هذه القراءة تستند إلى لهجة من لهجات قبائل العرب، ولا يجوز رميها بالخطأ. ولا شك أن العلاقة واضحة بين الصاد والزاي لأنَّهما من مخرج واحد ثم تآخيهما في الصفير وهو نوع من التقريب والمماثلة، كما أن العلاقة بين القبائل الثلاث التي آثرت إخلاص الزاي قوية. فكلها ترجع إلى قُضَاعة، فلا عجب أنْ تتشابه لهجاتها(١٣). ويبدو أنَّ إبدال السين زاياً كان فاشياً في قبيلة كلب، كما يروي ذلك ابن جني وابن الحاجب والرضي(١٤). أضف إلى هذا كله، أن السين لما كانت مهموسة والقاف مجهورة جعلوا السين زاياً، لمناسبة الزاي للسين في المخرج والصفير(١٥). وعلى تلك اللهجة قرىء قوله تعالى : ﴿ومن أصدق من الله . . .﴾ بالزاي(١٦). وهذا كله يؤيد كلام أبي حيان من تجويز هذه القراءة ونفي التهمة والطعن المنسوب إليها.

---

(١١) البحر ج١ ص٢٥. والسبعة في القراءات لابن مجاهد ص١ ـ ١٠ والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ج١ ص٣٧.

(١٢) البحر المحيط ج١ ص٢٥.

(١٣) اللهجات العربية في التراث ص٤٤٨.

(١٤) أنظر الشافية ج٣ ص٢٣٣.

(١٥) اللهجات ص٤٤٨.

(١٦) البحر المحيط ج٣ ص٣١٢.

٢ ـ إبدال الجيم ياء : في قوله تعالى : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾.

قراءة (الشيرة) بدلاً من (الشجرة). قرئت الشيرة بكسر الشين والياء المفتوحة بعدها. وكَرّهَ أبوعمرو هذه القراءة. وقال يَقْرَأُ بها برابر مكة وسودانها[١٧]. انبرى أبوحيان للرد على هذا التكريه قائلاً : وينبغي أن لا يكرها، لأنّها لغةٌ منقولةٌ فيها. ولم يكتفِ أبوحيان بذلك بل ويورد رواية يدلل بها على صدق ما ذهب إليه يقول :

قال الرياشي : سمعت أبا زيد يقول : كنا عند المفضل وعنده أعراب فقلت : إنّهم يقولون شيرة ؟

فقالوا : نعم. فقلت له : قل لهم يصغرونها. فقالوا : شُيَيْرَة. وزيادة في دحض ما ذهب إليه أبوعمرو، يورد أبوحيان بيتاً من الشعر أنشده الأصمعي، يذكر فيه أنَّ العرب تبدل الجيم ياء وهو : (تحسبه بين الأنام شيرة[١٨]).

عزا ابن اسحق هذه القراءة إلى لغة سُلَيْم، وبعضهم عَزَاها إلى تميم. وربما نقلت هذه اللغة إلى سليم عن طريق التجارة ثم تلقتها مكة. أنَّ التاريخ يتحدث عن سليم بأنّها وثيقة الصلة بقريش، ولهذا لا نعجب إذا قال أبوعمرو : يقرأ بها برابر مكة وسودانها[١٩]. والبدل يحدث بين الصوتين لأنّهما شجريان متفقان مخرجاً وكلاهما مجهور وإنْ اختلفا صفةً[٢٠].

ويبدو أنَّ هذه اللهجة لا زالت حتى أيامنا هذه في تميم[٢١]. (وفي الحوطة في جنوب الرياض) وفي حضرموت[٢٢]. وبعض اللهجات العربية الحديثة في شمال الجزيرة العربية[٢٣].

---

(١٧) نفسه ج١ ص١٥٨.

(١٨) البحر المحيط ج١ ص١٥٨.

(١٩) اللهجات العربية في التراث ـ أحمد علم‌الدين الجندي ص٤٥٩.

(٢٠) نفسه ص٤٦٠.

(٢١) نفسه ص٤٦١.

(٢٢) نفسه ص٤٦١.

(٢٣) نفسه ص٤٦١.

٣ ـ الهمزة في قوله تعالى : ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾.

يقول أبوحَيَّان : ولغة تميم تخفيف الهمزتين في نحو «أأنذرتهم» وبه قرأ الكوفيون وابن ذكوان وهو الأصل. وأهل الحجاز لا يرون الجمع بينهما طلباً للتخفيف. فقرأ الحرميان وأبوعمرو وهشام بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، إلاَّ أنَّ أباعمرو وقالون وإسماعيل بن جعفر عن نافع وهشام يدخلون بينهما ألفاً وابن كثير لا يُدْخِلُ. ورُوِي تحقيقاً عن هشام إدخال ألفٍ بَيْنَهما. وهي قراءة ابن عباس وابن أبي اسحق، ورُوِي عن ورش كابن كثير وكقالون، وإبدال الهمزة الثانية ألفاً فيلتقي ساكنان على غير حدهما عند البصريين[٢٤]. وقد أنكر هذه القراءة الزمخشري، وزعم أن ذلك لحن وخروج عن كلام العرب ومن وجهين : أحدهما : الجمع بين ساكنين على غير حده. والثاني : ان طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها، هو بالتسهيل بين بين لا بالقلب ألفاً، لأنَّ ذلك هو طريق الهمزة الساكنة[٢٥].

وقد رد أبوحيان على الزمخشري قائلاً : إن القراءة صحيحة النقل والتواتر، مستنداً إلى أن مذهب الكوفية يجيز ذلك فيقول : وما قاله الزمخشري هو مذهب البصريين. وقد أجاز الكوفيون الجمع بين الساكنين على غير الحد الذي أجازه البصريون. وقراءة ورش صحيحة النقل لا تدفع باختيار المذهب ولكن عادة الرجل إساءة الأدب على أهل الأداء ونقله القرآن[٢٦].

وقد ناقش الدكتور أحمد مكي الأنصاري هذه القضية قائلاً : يجب تعديل هذه القاعدة النحوية (لا يجوز الجمع بين الساكنين) في مثل (أأنذرتهم) بقلب الهمزة الثانية ألفاً إلى : (يجوز الجمع بين الساكنين) في مثل (أأنذرتهم) (بقلب الهمزة الثانية ألفاً) استناداً إلى قوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم . . .﴾ حيث قُرِئَتْ بقلب الهمزة ألفاً، وهي قراءة سبعية محكمة. متواترة[٢٧]. والأنصاري لم يزد على قول أبي جيَّان شيئاً.

(٢٤) البحر المحيط ج١ ص٤٧، وانظر الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ج١ ص١٨٣.

(٢٥) البحر المحيط ج١ ص٤٧، وانظر الكشاف في حقائق التنزيل للزمخشري، دار المعرفة ج١ ص٢٦.

(٢٦) البحر المحيط ج١ ص٤٨.

(٢٧) نظرية النحو القرآني، أحمد مكي الأنصاري، مجلة البحث العلمي ـ جامعة أم القرى ـ العدد الخامس عام ١٤٠٢.

٤ ـ قراءة ﴿للملائكةُ اسجُدوا﴾ يقول أبوحيان : «وقرأ أبوجعفر يزيد بن القعقاع وسلمان بن مهران، بضم التاء اتباعاً لحركة الجيم، ونقل أنها لغة ازد شنوءة.

طعن في هذه القراءة كثير من النحاة العرب، فالزجاج يقول : «هذا غلطٌ من أبي جعفر. والفارسي يقول : هذا خَطَأٌ. وابن جِنّي يعلل قائلاً : لأنَّ كسرةُ التاء إعراب، وإنما يجوز هذا الذي ذهب إليه أبوجعفر إذا كان ما قبل الهمزة ساكناً صحيحاً نحو : وقالتِ اُخرج[٢٨]». وقال الزمخشري : لا يجوز، لاستهلاك الحركة الاعرابية بحركة الاتباع في لغة ضعيفة كقولهم : الحمدِ لله[٢٩].

انبرى أبوحيان بالرد على منكري هذه القراءة مستدلاً بأنَّ لغة أزد شنوءة أولاً، وثانياً أنَّ قارئها أبوجعفر أَحَدُ القراء المشاهير، الذين أخذوا القرآن عرضاً عن عبدالله بن عباس وعدد من الصحابة، وهو شيخ نافع بن نعيم، أحد القراء السبعة[٣٠].

ثم لا يكتفي بهذا، بل يحاول تعليل وتحليل هذه الظاهرة قائلاً : وقد عُلِّلَ ضم التاء لشبهها بألف الوصل، ووجه الشَّبَهِ أنَّ الهمزة تسقط في الدرج، لكونها ليست بأصل. والتاء في الملائكة تسقط أيضاً لأنها ليست بأصل، ألا تراهم قالوا : الملائكُ وقيل : ضُمَّتْ لأنَّ العرب تكره الضمة بعد الكسرة لثقلها[٣١].

وهذا التخريج موافق للتفسير القائل : إن العربية تحرص على الانسجام الصوتي والاتباع حرصها على الاعراب[٣٢]. ولهذا رواها الكسائي وَوَجَّهها بأنَّ التاء ضُمَّتْ إتباعاً لحركة الجيم في «اسجدوا» ولو لم يتبعوا لخرج اللسان من كسرٍ إلى ضم والعرب تكره ذلك.

---

(٢٨) البحر ج١ ص١٥٢.

(٢٩) أنظر أقوال النحاة في الطعن في هذه القراءة البحر ج١ ص١٥٢ والكشاف للزمخشري ج١ ص٦٢.

(٣٠) البحر ج١ ص١٥٢.

(٣١) نفسه ج١ ص١٥٢.

(٣٢) أنظر اللهجات العربية ص٢٦٧.

ويذهب أحد الباحثين المحدثين إلى ما ذهب إليه أبوحيان قائلاً : ولسنا نتفق مع من ضعف هذه القراءة وأضرابها، لأنَّ القراءة سُنَّةٌ مُتَّبعةٌ يجب القياس عليها، لا إخضاعها للأصل النحوي(٣٣).

٥ ـ التسكين في قوله تعالى : ﴿فتوبوا إلى بَارِئِكُمْ﴾.

قال أبوحيان : وَقَرَأ الجمهور بظهور حركة الاعراب في (بَارِئِكُمْ) وروي عن أبي عمرو الاختلاس، وروى ذلك عنه سيبويه. ورُوي عنه الاسكان وذلك إجراء للمنفصل بين كلمتين مجرى المتصل من كلمة، فإنه يجوز تسكين مثل : إبْل ـ فأجري المكسورانِ في بارئكم مجرى إبْل(٣٤).

لحَّن أبوالعباس المُبرّد قراءة أبي عمرو بالتسكين، ومنع التسكين في حركة الاعراب(٣٥).

ورد أبوحيان على أبي العباس المبرد قائلاً : وما ذهب إليه ليس بشيء، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلّا بأثر عن رسول الله ﷺ ولغة العرب توافقه على ذلك. فإنكار المبرد لذلك مُنْكَرٌ وقال الشاعر :

فاليوم أشْرَبْ غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

وزيادة على ما ذكر يدلل على صحة هذه القراءة بما حكاه أبوزيد في قوله تعالى : ﴿وَرُسُلُنا لديهم يكتبون﴾. وقراءة مسلمة بن محارب ﴿وبُعولتُهُنَّ أحق بردهن﴾. بتسكين «رُسُل» «وبعولتهن»(٣٦).

أضف إلى ذلك أن أباعمرو يذكر أنَّ لغة تميم تسكن ا لمرفوع من «يَعْلَمْهُ» ونحوه. ومثل تسكين بارئكم قراءة حمزة : ومَكْرْ السّيّء(٣٧).

---

(٣٣) الحمل على الجوار، د. عبدالفتاح الحموز ص١٤٣.

(٣٤) البحر ج١ ص٢٠٦.

(٣٥) نفسه ج١ ص٢٠٦.

(٣٦) نفسه ج١ ص٢٠٦.

(٣٧) نفسه ج١ ص٢٤١.

مما سبق يتبين لنا أن أباحيان اعتمد في الرد على منكر هذه القراءة بطرائق مختلفة منها : أنَّ القراءة تستند إلى لهجة قبيلة تميم. وانَّ القراءة متواترة غير مقطوعة السند إلى رسول الله ﷺ. وأن القراءة لها ما يشبهها من القراءات في تسكين حركة الاعراب.

يقول مَكّي بن أبي طالب : وحجة من أسكن أنَّه شَبَّه حركة الإعراب بحركة البناء، فأسكن حركة الاعراب استخفافاً لتوالي الحركات. وهو ضعيف مكروه(٣٨).

واعتقد أنَّ تكريههم وطعنهم بهذه القراءة هو أنَّ الإسكان بغير حركة الإعراب. وحركة الإعراب عند النحاة شيءٌ مُقَدَّس لا يجوز مَسُّها والعبث بها، ناسين أو متناسين أنَّه يثقل على اللسان أنْ ينطق بثلاث حركات، ينتقل فيها من كسر الراء إلى كسر الهمزة إلى ضم الكاف في بارئكم. فلا ضرر أنْ يُسَكِّنَ القارىء الهمزة. وهل ستتغير دلالتها الوظيفية والنحوية مع التسكين ؟

إني لا أعتقد ذلك وبخاصة أنَّها جاءت مجرورة. وهذا مما يبعد احتمال تغير دلالتها. ويقول أحد الباحثين المحدثين : إنَّ هذا يُحْمَلْ على الخفة في القرآن وأنَّه ليشيع في التنزيل تخفيف الحركات بالحذف(٣٩).

٦ ـ حذف النون في قراءة ﴿أَتُحَاجُونِي﴾ : يقول أبوحيان :

«قرأ نافع وابن عامر بخلافٍ عن هشام (أتحاجوني) بتخفيف النون. وأصله بنونين. الأولى علامة رفع والثانية : نون الوقاية»(٤٠).

لحّن بعض النحويين من قرأ بالتخفيف في هذه القراءة.

وقال مكي : «الحذف بعيد في العربية قبيح مكروه وإنما يجوز في الشعر للوزن. والقرآن لا يُحْتَمَلُ ذلك فيه؛ إذ لا ضرورة تلجىء إليه»(٤١).

(٣٨) نفسه ج١ ص٢٤١.

(٣٩) الحمل على الجوار ـ د. عبدالفتاح الحموز ص٢٠٤.

(٤٠) البحر ج١ ص١٦٤.

(٤١) الكشف عن وجود القراءات السبع وعللها وحججها/ مكي القيسي ـ تحقيق محي الدين رمضان مؤسسة الرسالة ١٩٨١.

يقول أبوحيان في الرد على من لَحَّن هذه القراءة أنَّه أخطأ في ذلك. وأنَّ قول مكي ليس بالمرتضى وقال : إنَّ التخفيف لغة لغطفان. وما دامت القراءة تستند أو تمثل لهجة من لهجات العرب فهي جائزة ولا يجوز الطعن بها.

٧ ـ قراءة ﴿وإن تبدوا الصدقات فنِعِمّا هي﴾.

يقول أبوحيان : وقرأ ابن كثير وورش وحفص «فنِعِما» بكسر النون والعين. ووجه هذه القراءة أنَّه على لغة من يحرك العين ويتبع حركة النون بحركة العين. وتحريك العين الأصل وهي لغة هذيل . . . وقرأ أبوعمرو، وقالون، وأبوبكر، بكسر النون وإخفاء حركة العين وقد رُوِي عنهم الإسكان والأول أقيسُ وأشهرُ. ووجه الإخفاء طلب الخفة، وأما الإسكان فاختاره أبوعبيدة، وقال : الإسكان فيما يُروى لغة النبي ﷺ في هذا اللفظ. قال لعمرو بن العاص نِعِمّا المال الصالح للرجل الصالح.

ولم تسلم هذه القراءة (أي بالاسكان) من الطعن فأنكرها أبوالعباس، وأبواسحق، وأبوعلي، لأنَّ فيه جَمْعَاً بين ساكنين على غير حده*.

وقال أبوالعباس : لا يعد أحد أنْ ينطق به وإنما يروم الجمع بين ساكنين ويحرك ولا يأتيه. وقال أبواسحق : لم تضبط الرواة اللفظ في الحديث (أي حديث الرسول ﷺ لعمرو بن العاص سالف الذكر). وقال أبوعلي : لَعَلَّ أباعمرو أخفى، فظنَّهُ السَّامع إسكاناً. وأبوحيان ردَّ كعادته في الذود عن القراءات على هؤلاء قائلاً : إنكار هؤلاء فيه نظر. لأنَّ أئمة القراءة لم يقرأوا إلَّا بنقل عن رسول الله ﷺ. ومتى تطرق إليهم النقل فيما نقلوه من مثل هذا تطرق إليهم فيما سواه. ثم يضيف قائلاً : والذي نختاره ونقوله أنَّ نقل القراءات السبع متواترة لا يمكن وقوع الغلط فيه.

فهذه القراءة يدافع عنها أبوحيان لأنَّها قراءة سبعية، والقراءة السبعية كما هو معروف بين القراء والنحاة واللغويين لا يمكن ردها، أو رفضها، أو رميها بالضعف، لأنها وصلتنا متواترة عن رسول الله ﷺ. ويثبت ذلك حديث رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص سالف الذكر. وهي كذلك لهجة من لهجات العرب كما ذكرنا.

* انظر رأي الفارسي في الحَجَّة في القراءات لأبي علي ج٢ ص٣٩٧ تحقيق بدرالدين قهوجي وزميله/دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٤.

٨ ـ تسكين الهاء المتصلة بالفعل المجزوم :

يقول أبوحيان : وقرأ الجمهور «يؤدِه» بكسر الهاء ووصلها بياء. وقرأ قالون باختلاس الحركة. وقرأ أبوعمرو، وأبوبكر، وحمزة، والأعمش بالسكون. وغلّط هذه القراءة (قراءة أبي عمرو وأبي بكر وحمزة والأعمش بالسكون) أبواسحق. وقال : هذا الاسكان الذي رُوِي عن هؤلاء غَلَطٌ بَيِّنٌ، وعَلَّل ذلك بأنَّ الهاء لا ينبغي أن تُجْزَم وإذا لم تجزم، فلا يجوز أن تُسَكَّنَ في الوصل. ثم يرى أن أباعمرو كان يختلس الكسرة، وهذا غلط منه كما غلط في بارئْكم[٤٢]. أي بتسكين آخر الكلمة كما سلف.

لم يسكت أبوحيان حيال هذا التغليط الذي رمى به أبوإسحق قراءة أبي عمرو، فقد رَدَّ عليه رداً معتمداً على أربعة أسس.

الأول : أنَّ هذه القراءة قراءة سبعية، وهي متواترة لذا لا يجوز الطعن بها.

والثاني : أنَّ هذه القراءة منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو بن العلاء وهو عربي صريح وسامع لغة وإمام في النحو. ولم يكن لِيَذْهَب عنه جواز مثل هذا.

والثالث : أنَّ هذه القراءة قد أجازها بعض أئمة النحو واللغة كالفَرَّاء والكسائي.

والرابع : أنَّ هذه القراءة تمثل لهجة عربية كما رواها الكسائي ونسبها إلى عقيل وكلاب.

وذكر أنهم يختلسون الحركة في هذه الهاء إذا كانت بعد متحرك وأنَّهم يسكِّنون أيضاً.

أضف إلى هذا أنَّه يُرْوَى أنَّ أباإسحق الزجاج الذي خَطَّأ القراءة، يُقال عنه : إنه لم يكن إماماً في اللغة ولذلك أنكر على ثعلب في كتابه الفصيح مواضع زعم أنَّ العرب لا تقولها. وردّ ناس كثيرون على أبي اسحق في إنكاره، ونقلوها من لغة العرب، وممن ردَّ عليه أبومنصور الجواليقي[٤٣].

---

(٤٢) نفسه ج٢ ص٤٩٩.

(٤٣) أنظر كتاب الرد على الزجاج، للجواليقي، والبحر المحيط ج٢ ص٤٩٩.

ويرى أحد الباحثين المحدثين جواز تسكين الهاء المتصلة بالفعل المجزوم، إستناداً إلى ما ورد في القرآن الكريم، من قراءات سبعية متعددة(٤٤).

٩ ـ عطف الاسم الظاهر على الضمير في قراءة (الأرحام) بالكسر عطفاً على الهاء في (بِهِ) في قوله تعالى : ﴿تساءلون بِهِ والأرحام﴾(٤٥).

يقول أبوحيان : ما ذهب إليه أهل البصرة وتبعهم فيه الزمخشري، وابن عطية من امتناع العطف على الضمير المجرور، إلاَّ بإعادة الجار، وأن اعتلالهم لذلك غير صحيح. بل الصحيح ما ذهب الكوفيون في ذلك أنَّه يجوز(٤٦).

وردّ ابن عطية هذه القراءة من حيث المعنى من وجهين : أحدهما : أنَّ ذكر الأرحام مما تساءل بها لا معنى له في الحض على تقوى الله تعالى، ولا فائدة فيه أكثر من الإخبار بأنَّ الأرحام يُتساءل بها، وهذا تفريق في معنى الكلام وغضّ من فصاحته، وإنَّما الفصاحة في أنْ تكون في ذكر الأرحام فائدة مستقلة. والوجه الثاني : أن في ذكرها على ذلك تقدير التساؤل بها، والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يرد ذلك في قوله ﷺ من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت.

ويرد أبوحيان على قول ابن عطية قائلاً : «وأما قول ابن عطية (ويرد عندي هذه القراءة وجهان) فجسارةٌ قبيحةٌ منه لا تليق بحاله ولا بطهارة لسانه، إذْ عَمِدَ إلى قراءة متواترة عن رسول الله ﷺ. قرأ بها سلف الأمة، واتصلت بها بأكابر الصحابة الذين تلقوا القرآن من فِيْ رسولِ الله ﷺ بغير واسطة. ثم يضيف أبوحيان : إنَّما ذكرت هذا وأطلت فيه لئلا يطلع عمر* على كلام الزمخشري وابن عطية في هذه القراءة، فيسيء ظَنّاً بها، وبقارئها فيقارب أن يقع الكفر بالطعن في ذلك»(٤٧).

---

(٤٤) أحمد مكي الأنصاري ـ نظرية النحو القرآني عدد ٥ ص١٦٧.

(٤٥) أنظر تفصيل هذه المسألة في : الانصاف في مسائل الخلاف : مسألة (٦٥) وشرح المفصل لابن يعيش ج٣ ص٨٧ ونظرية النحو القرآني ـ أحمد مكي النصري ـ مجلة البحث العلمي/جامعة أم القرى عدد ٥ ص١٥٥، وما بعدها.

(٤٦) البحر ج٣ ص١٥٨، وانظر رأي الزمخشري في الكشف ج١ ص٢٤١.

* هكذا وردت في البحر وأظنها ـ مُطْلِعَ ـ.

(٤٧) البحر ج٣ ص١٥٩.

فَرَدَّ أبي حيان على الزمخشري وابن عطية ينطوي على شيئين اثنين :

أولاً : ان القراءة قراءة سبعية متواترة لا يجوز أن يطعن بها طاعن لأنها موصولة السند بالرسول ﷺ.

ثانياً : أنه يذهب مذهب الكوفيين في القراءة ويجيز عطف الاسم الظاهر على الضمير، دون إعادة الجار : وهذا ليس غريباً في رأيي - إذ أنه في كثير من القضايا والقراءات التي ذكرنا في هذا البحث يقف مع الكوفيين ويستشهد على صحة ما يذهب إليه بأقوالهم كما مر.

وأرى أنَّ أباحيان لم يكن بصرياً كما يذهب محقق كتابه «تذكرة النحاة»(٤٨). ولا كوفياً إنما كان صاحب رأي ثابت أينما رأى صائباً تبعه والشواهد على ذلك كثيرة. ولئلا يطول البحث لا نستطيع ذكرها هنا - ولكننا نود أن نضع بين يدي القارىء رأي أبي حيان في ذلك من كلامه : يقول : «ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة، ولا غيرهم ممن خالفهم، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون. وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون. وإنما يَعْرِفُ ذلك من له استبحار في علم العربية»(٤٩).

١٠ - إدغام غير المثلين في (يغفر لمن) :

قال أبوحيان : «قال الزمخشري وقد ذكر قراءة الجزم» فإن قلت كيف يقرأ الجازم، قلت يظهر الراء ويدغم اللام. ومدغم الراء في اللام لاحنٌ مخطيء خطأ فاحشاً وراويه عن أبي عمرو مخطيء مرتين، لأنه يلحن وينتسب إلى أعلم الناس بالعربية(٥٠).

يقول أبوحيان رداً على الزمخشري : وذلك على عادته في الطعن على القراء. وأمَّا ما ذكر أن مدغم الراء في اللام مخطيء خطأ فاحشاً إلى آخره . . . فهذه مسألة

(٤٨) تذكرة النحاة - لأبي حيان - تحقيق عفيف عبدالرحمن ص١٨.

(٤٩) البحر ج٣ ص١٥٨.

(٥٠) البحر ج٢ ص٣٦١، وانظر الكشاف الزمخشري ج١ ص١٧١.

اختلف فيها النحويون. فذهب الخليل وسيبويه وأصحابه إلى أنَّه لا يجوز إدغام الراء في اللام من أجل التكرير الذي فيها ولا في النون. قال أبوسعيد ولا نعلم أحداً خالفه إلاَّ يعقوب الحضرمي. وإلاَّ ما رُوي عن أبي عمرو، أنَّه كان يدغم الراء في اللام متحركةً متحركاً ما قبلها، نحو: (يغفر لمن) (العمر لكيلا)، (واستغفر لهم الرسول) . . . وأجاز ذلك الكسائي والفراء وحكياه سماعاً ووافقهما على سماعه روايةً وإجازةً أبوجعفر الرؤاسي. وهو إمام من أئمة اللغة العربية من الكوفيين. وقد وافقهم أبوعمرو على الإدغام روايةً وإجازةً.

ويقول أبوحيان: «والإدغام وجه من القياس ذكرناه في كتاب التكميل لشرح التسهيل من تأليفنا، وقد اعتمد بعض أصحابنا على أنَّ ما رُوِي عن القراء من الإدغام الذي منعه البصريون يكون ذلك إخفاء لا إدغاماً، وذلك لا يجوز أن يُعْتَقَد في القراء أنَّهم غلطوا، وما ضبطوا، ولا فَرَّقُوا بين الإخفاء والإدغام. ثم يقول في موضع آخر: وهذا لا ينبغي فإن لسان العرب ليس فيما نقله البصريون فقط. والقراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه، بل القراء الكوفيون يكادون يكونون مثل قراء البصرة، وقد اتفق على نقل إدغام الراء في اللام كبير البصريين ورأسهم أبوعمرو بن العلاء، ويعقوب الحضرمي، وكبراء أهل الكوفة الرؤاسي والكسائي والفراء».

مما سبق نرى أن أباحيان يرد عل يالزمخشري (في طعنه قراءة الإدغام) مستشهداً برأي وإجازة رأسين من رؤوس البصرة وكبراء المدرسة الكوفية. أضف إلى هذا أنَّ القراءة سبعية متواترة[٥١]. وما يجيزه النحاة وأبوحيان هو جائز من حيث الوجهة الصوتية حيث أنَّه إذا اجتمع صوتان متقاربان مخرجاً أو صفة، أثَّرَ أحدهما في الآخر. بحيث يصبحان مجهورين أو مهموسين تحقيقاً للانسجام بين الأصوات وتوفيراً للجهد العضلي، إذ يُغْنِي الصوتُ الأَوَلُ عن الثاني بحيث تنطق بالصوتين صوتاً واحداً. فيكون عمل اللسان من وجه واحد[٥٢]. وإلى مثل هذا ذهب بعض الباحثين المحدثين[٥٣].

(٥١) كتاب السبعة في القراءات ـ ابن مجاهد، ص١٩٥، ت شوقي ضيف ـ ط دار المعارف بمصر.

(٥٢) اللهجات في التراث، علم الدين الجندي، ص٢٩٤.

(٥٣) أنظر النحو القرآني، أحمد مكي الأنصاري ـ مجلة البحث العلمي، جامعة أم القرى، العدد ٥ ص١٧١ عام ١٩٨٢.

١١ ـ كسر يا (بِمُصْرِخِيّ).

يقول أبوحيان[٥٤] : وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزه (بمصرخي) بكسر الياء. كَثُرَ الطاعنون في هذه القراءة، قال الفَرَّاءُ : لعلها مِنْ وَهْمِ القراء فإنه قَلَّ منهم من سَلِمَ من الوهم. ولعله ظنَّ أنَّ الباء في «بمصرخي»، خافضةٌ للحرف كلِّهِ، والياء للمتكلم خارجةٌ من ذلك. وقال أبوعبيدة : نراهم غَلَطُوا وظَنُّوا أنَّ الياء تكسرُ لما بعدها. وقال الأخفش : ما سمعت هذا من أحد العرب ولا من النحويين. وقال الزجاج هذه القراءة عند جميع النحويين رديئة مرذولة ولا وجه لها إلاَّ وجه ضعيف.

قال النحاس : صار هذا إجماعاً ولا يجوز أن يُحْمَلَ كتاب الله على الشذوذ.

وقال الزمخشري : هي ضغيفة واستشهد لها ببيت مجهول :

قال لها هل لك يا ناقي قالت له ما أنت بالمرضي

فَنَّد أبوحيان أقوال هؤلاء النحاة قائلاً :

أما قول الزمخشري فقد استشهد لها ببيت مجهول، فقد ذكره غيره للأغلب العجلي، وهي لغة باقية في أفواه الناس إلى اليوم يقول القائل : ما فيّ إفعل كذا بكسر الياء[٥٥] أما ما ذهب إليه النحاة الذين ذكرناهم سابقاً. فيقول أبوحيان إنَّه لا ينبغي أنْ يُلْتَفَتَ إليه واقتفى آثارهم فيها الخلف فلا يجوز أن يُقال فيها : إنَّها خَطأ أو قبيحة أو رديئة. ثم يدلل على قوله هذا كعادته، بأنَّ هذه القراءة تمثل لغة من لغات العرب، لكنّها قَلَّ استعمالها. وذكر أنَّ هذه اللغة كما ينص عليها قطرب ـ لغةُ بني يربوع.

ثم لا يكتفي بهذا بل نراه يذكر رواية أُخرى تبين أنَّ هذه القراءة صحيحة نقلاً عن القاسم بن معن الذي جوَّز هذه القراءة حِيْنَ سألَ حسين الجعفي عنها. ويذكر أيضاً أنَّ أباعمرو قال : هي جائزة رغم أنَّ أهل النحو يلحنون من يقرأ بها[٥٦].

(٥٤) البحر ج١ ص١٩، وانظر : معاني القرآن للفراء ج٢ ص٧٥.

(٥٥) البحر ج٥ ص٤١٩.

(٥٦) نفسه ج٥ ص٤٢٠.

وفي هذا المقام فإنّي أرى أنَّ المجيزين في هذه على حق لأنَّ هذه القراءة صحت سماعاً. كما أنَّها صحت قياساً إذ الياء كُسرت إتباعاً للكسرة التي بعدها في (بمصرخي إنّي). واللسان بها يعمل من موضع واحد ووجه واحد. ففيها الانسجام وتقريب الأصوات بعضها من بعض وذلك ما يميل إليه البدو أمثال بني يربوع[٥٧].

١٢ ـ قراءة ﴿إنَّ هذانِ لساحران﴾ بالنصب.

يقول أبوحيان : «قرأ الجمهور من السبعة» إنّ هذان لساحران» بتشديد النون من «إنَّ» وتخفيفها في نون المثنى من «هذان». وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي.

وقرأ أبوعمرو بن العلاء إنّ هذين لساحران» بتشديد النون من «إنَّ» وبالياء في هذين «بدل الألف». وهي قراءة سبعية محكمة كما قرأ بها من السلف الصالح فريق كبير منهم الحسن البصري، وعائشة، وابن جبير، والأعمش، والنخعي، والجحدري، وابن عبيد[٥٨].

أنكر القراءة الثانية بعض النحاة وقالوا هذا غلط من الكاتب[٥٩]. وكان من المنتظر أن يقبلوا قراءة أبي عمرو لأنها تتفق وقواعدهم النحوية التي تقول انَّ المثنى يعرب بالياء في حال النصب. فالفراء يقول فيها : ولست أجترىء على ذلك[٦٠]. والزجاج يقول : لا أجيز قراءة أبي عمرو لأنّها خلاف المصحف[٦١].

وقد تصدى للرد على هؤلاء ابن تيمية في رسالته الكلام على قوله تعالى : ﴿إن هذان لساحران﴾[٦٢] قائلاً : «وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ أنّه غلط

(٥٧) اللهجات العربية ص١٨٨.

(٥٨) البحر ج٦ ص٢٥٥.

(٥٩) البحر المحيط ج٥ ص٢٥٥.

(٦٠) معاني القرآن ج٢ ص٢٩٣.

(٦١) البحر المحيط ج٥ ص٢٥٥.

(٦٢) ابن تيمية والكلام على قوله تعالى ﴿إن هذان لساحران﴾ ت د. ناصر الرشيد ـ مجلة مركز البحث العلمي العدد ٢ سنة ١٩٧٩م.

من الكاتب. وهذا مما يوجب القطع بخطأ من زَعَم أنَّ في المصحف لحناً أو غلطاً».

أما أبوحيان فوقف من هذه القراءة موقفاً ليس ببعيد من موقف ابن تيمية : حيث يقول : والذي نختاره في تخريج هذه القراءة، أنَّها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثنى دائماً بالألف. وهي لغةٌ لِكِنَانه حكى ذلك أبوالخطاب، ولبني الحارث بن كعب وخثعم وزبيد وأهل تلك الناحية ـ حكى ذلك عنهم الكسائي ولبني العنبر وبني الهجيم وقراد وعذرة[٦٣].

لم يخرج أبوحيان في دفاعه عن القراءة السابقة المطعون بصحتها عن الأُسس البارزة التي اعتمدها في القراءات السالفة، فالقراءة عنده سبعية صحيحة متواترة وهي كذلك لهجة لقبائل عديدة.

من خلال دراسة ومناقشة ما مر نستطيع أن نخلص إلى ما يلي :

١ ـ اعتمد أبوحيان في مواقفه ورأيه من هذه القضايا على ما يسمى بالسَّماع : وهو ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته ويشمل هذا كما يقول السيوطي : كلام الله (القرآن) وكلام نبيه، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده . . . أمَّا القرآن فكل ما ورد أنه قرىء به ـ جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أو آحاداً أو شاذاً[٦٤].

فأبوحيان يعتمد على القراءة ويحتج بها لصحة القاعدة، ولا يحتج بالقاعدة لصحة القراءة.

٢ ـ أضف إلى ذلك أن أبا حيان كان يختار بعضاً من هذه القراءات ويجيزها لأنَّ لغة العرب تؤيد هذه القراءة. أي أنها تستند إلى لهجة من لهجات العرب الفصيحة.

٣ ـ كان يستشهد بأقوال كبراء النحاة من المدرستين الكوفية والبصرية للتدليل على صحة القراءة.

---

(٦٣) البحر المحيط ج٦ ص٢٥٥.

(٦٤) الاقتراح ص٤٨.

٤ ـ انَّ النحاة جرحوا القراءات السابقة ورموها بالضعف تارة وتارة أخرى باللحن لسبب بسيط وهو أن هذه القراءات خالفت شيئاً من قواعدهم النحوية.

٥ ـ ما ذهب إليه أبوحيان في القراءات يؤيده كثير من الدراسات اللغوية الحديثة(٦٥).

(٦٥) أنظر: سيبويه والقراءات: دار المعارف بمصر.
دراسات في النحو والقراءات: مجلة المجمع اللغوي بمصر (ج٣١ سنة ١٩٧٣م).
المعارضة الصريحة للقراءات: مجلة جامعة القاهرة ـ فرع الخرطوم ـ العدد ٣ سنة ١٩٧٢م.